

دولة التعاقد الاجتماعي في السودان:

ليست خياراً بل ضرورة

الباب الاول

تاريخ الإنسان السوداني
من نحن؟

obeikandi.com

يتحدث الباب الأول بشيء من الإختصار، عن تاريخ الإنسان السوداني، والممالك والسلطنات القديمة، والعلاقات التجارية بين الشعوب المتجاورة. والغرض من عرض التاريخ الموجز هو للتأكيد بأن الإنسان السوداني له حضارة عريقة ربما أقتبسه المصريون ومن ثم طوروها من بعد. الأفضل للسودانيين التفاخر بأصولهم ذات الحضارة العريقة بدلاً عن الإدعاء بأنهم من كوكب آخر. لذلك يتطلب الأمر أولاً، أن نعترف ونحترم في المقام الأول بحقيقة تاريخ المكونات الاجتماعية السودانية. لأنه من المستحيل تطوير ثقافة مستوردة في بيئة غير بيئتها، أي السودان. لذا لا يمكن أن تدمج كل الشعوب المختلفة في عرق واحد، أي لا يمكن أن تجعلهم جميعاً عرب، لأن هذا ضد الحكمة الإلهية، إذ يقول عز وجل في محكم تنزيله ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [حجرات]. كما أنه من المستحيل أن تجبرهم وتحولهم جميعاً لإعتناق الديانة الإسلامية، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص] وفي سورة البقرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِنَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَأْتِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظلمون ﴿١٧٧﴾﴾.

يوضح تاريخ البشرية، أن في غالب طبع الإنسان الصراع المستمر، فكان صراعه الأول مع الطبيعة، ليطاوعها حتى يتمكن هو من استمرارية وجوده في الحياة. ولما تمكن من ذلك، تحول ذات الصراع مع أخيه الإنسان، لذلك عمل الإنسان القوي على إخضاع الإنسان الضعيف تحت سيطرته، من أجل أن يستفيد هو - صاحب السلطة - فقط من خيرات الطبيعة المتوفرة. في مرحلة تاريخية ثالثة للبشرية، عاد الإنسان ليصارع مع الطبيعة للمرة الثانية. هذه المرحلة الثانية مع الطبيعة، هي للحفاظ عليها، وهذا الصراع ناتج عن صحوة رئيسية للشعوب المتحضرة، إذ أيقنت أن خيرات الطبيعة في تقلص مضطرد، مقارنة مع الزيادة المستمرة للتعداد السكاني على كوكب الأرض. لذلك جاءت هذه المرحلة التاريخية، وهي تسعى إلى زيادة خيرات الطبيعة لتواكب مطالب الإنسان وكذا المحافظة عليها من الانقراض.

لذلك نشأت أحزاب سياسية سميت بـ«الخضر» تعمل في المحافظة على البيئة الطبيعية، كذلك قامت منظمات مجتمعي مدني لتحقيق نفس الغرض، إلا أنها لا تسعى

لتولي سلطة سياسية، بقدر ما تسعى للضغط على حكوماتها لتبني سياسات الخضر. لكن لا زال إنسان العالم الثالث، وإنسان السودان على وجه الخصوص، يعاني وبقساوة، صراع الإنسان ضد الإنسان. وهذا ما سيوضحه الفصل الثاني، إذ يبين لنا أن الإنسان السوداني نيتته توقف عند هذا الحد، بل يسير إلى الخلف، إلى العصور المظلمة، يتمثل هذا في دولته التي يقودها حكومة توجهها يسير نحو ظلام دامس.



الفصل الأول

السودانيون : من نحن؟

مقدمة :

يعتبر السودان قبل انشطاره إلى دولتين في العام ٢٠١١م، بلداً متعدد القوميات والأعراق والأديان والثقافات، إذ تشير دراسات علم الاجتماع أن دولتي السودان، تحتويان على عدد ٥٦ مجموعة عرقية مختلفة و٥٩٧ قبيلة وما يزيد عن ١١٠ لغة^(١). وفي موقع آخر، يقدر حجم التكوين الإثني في السودان بحوالي ستمائة (٦٠٠) جماعة عرقية ولغوية^(٢). لكن رغم هذا التعدد فإن الشعب السوداني المنحدر من شمال البلاد الجغرافي على طول النيل النهري «النخب النيلية الشمالية» كانوا على صلة مباشرة بالمستعمر مما أهلهم إلى تلقي التعليم والتدريب الحديث الضروري لإدارة جهاز الدولة. بعد الحرب العالمية الثانية نشطت حركات تحررية على نطاق العالم - في إفريقيا على وجه الخصوص - وانتهجت كثير منها النضال المسلح ضد الاستعمار الأوروبي. حركة التحرر السودانية، والتي قادتها النخب النيلية الشمالية، أخذت منحىً آخرًا وهو التفاوض السلمي، مما أتاح الفرصة لهذه النخب أن ترث حكم البلاد من المستعمر في الأول من يناير ١٩٥٦م. التفاوض السلمي وما تبعه من توريث السلطة في السودان، قاد النخبة النيلية الشمالية بأن تؤسس قناعة راسخة في نفسها بأنها أحق من أية فئة اجتماعية أخرى لحكم السودان، لذا طورت سياسات إقصاء الآخرين.

أود أن أشير هنا - قبل الخوض كثيراً في سطور الكتاب - إلى مسألة مهمة، وهي مفهوم مصطلح «النخبة النيلية الشمالية».

(1) Natsios, Andrew S. Sudan, South Sudan, and Darfur: What Everyone Needs to Know. New York: Oxford University Press 2012. P 10.

(٢) روبرت أو. كوليتز، تاريخ السودان الحديث، ترجمة: مصطفى مجدي الجمال، مراجعة: حلمي شعراوي، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠٨م) ص ٢١.

أولاً، السودانيون الشماليين هم أول من تلقوا التعليم الحديث، وهذه حقيقة تاريخية لا أحد له يد فيها، وبالتالي لا يجب بتاتا لبقية السودانيون أن يحسدوا الشماليين على ذلك، أي في هذه الواقعة التاريخية.

ثانياً، إلتف حول هذه النخبة، أعداد كبيرة من كل أنحاء السودان، من ذوي النفوس الضعيفة، التي تلهث وراء السلطة بكل الوسائل المشروعة والغير مشروعة، هؤلاء أصبحوا جزءاً أصيلاً من النخبة النيلية الشمالية، في سلوكهم وتبنيهم للعروبة والإسلام من أجل السلطة.

ثالثاً، كل ما يرد في هذا الكتاب لمصطلح «النخبة النيلية الشمالية»، المقصود به حصرياً، النخب التي تعاقبت على حكم السودان منذ الاستقلال - مدنيين أو عسكريين - من الشمال النيلي، ومعهم الذين هم ليسوا بنيليين جغرافياً ولكنهم شماليين ذهنياً.

ففي ظل حقيقة التعدد العرقي والقبلي في السودان، والتي لا جدال فيها، تقتضي الضرورة الاعتراف بهذه الحقائق من كل السودانيون أفراداً وجماعات. فالإعتراف بها واحترامها يعد الواجب الملح الآن وليس بعده، كما هو المفتاح الصحيح، الذي سيقودنا إلى الحل العقلاني والشافي لمشكلة السودان السياسية، القائمة أصلاً على الإقصاء العرقي. من هذا المنطلق، أود أن أشير إلى أن الغرض من هذه الجزئية من الكتاب، هو توضيح حقيقة أن الغالبية العظمى من سكان السودان الحاليين، هم من أصول نوبية بحتة ومن سلالات إفريقية أخرى، وذلك استناداً على مراجع وبحوث كثيرة من أهمها بحوث وكتابات د. أحمد إلياس حسين في (السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، الطبعة الثانية ٢٠١٢م) و د. سامية بشير دفع الله في (تاريخ مملكة كوش: نبتة ومروي، ٢٠٠٥م) وأيضاً في (تاريخ الحضارات السودانية القديمة). فإذا جاز لنا يمكن أن نلخص بأن مشكلة السودان، تقوم على الإقصائية بصورها المختلفة، وبالأخص العرقي منها والثقافي. فمن ضمن صور الإقصاء المدمرة للبلاد، هو تبني النخب الحاكمة «المستعربين» للعروبة كعرق آحادي، وهؤلاء القوم - المستعربين - يسعون سعياً حثيثاً، للتلفح بثوب القومية العربية كأيديولوجيا، اعتقاداً منهم أنها سوف تحقق لهم مآربهم. هذا المسلك هو الذي قاد السودان أن يتجه نحو تغليب الثقافة العربية، على الثقافات الأخرى لأهل السودان، من ذوي الأصول غير العربية. إن الاعتراف بحقيقة

أن أغلب السودانيين نوبيين مستعربين - كما سيوضح لاحقاً، سيضعنا في أعتاب الطريق الصحيح للتعاور بين شعوب السودان المختلفة.

فالحقيقة المسلم بها أن الديانات الإبراهيمية، دخلت السودان عن طريق بوابته الشمالية، لهذا فالسودانيين، ولاسيما الذين موطنهم الأصلي هو الرقعة الشمالية من السودان، كانوا في يوم من الأيام يعتقدون الديانات الإفريقية التقليدية، فاليهودية والمسيحية قبل إعتناقهم الإسلام، وهذه سنة الحياة. والحكمة الإلهية أن الله سبحانه وتعالى أنزل الأديان الإبراهيمية في حقب مختلفة، فسكان كل حقة تاريخية لهم الحق في اعتناق تلك الديانة، ولهم الحق أيضاً في الحفاظ عليها أو تركها والتحول إلى دين جديد، وهذا دليل على أن الإنسان يملك قابلية التحول في اعتناق الأديان. الشاهد في الأمر هنا، أن النخب المتعاقبة على إدارة الدولة السودانية، عمدت إلى رفض فك الاشتباك بين العرق والمعتقد، وبالتالي تم استغلال الدين باعتباره المدخل لترسيخ أحادية التوجه الثقافي، لاستدماج من هو غير العربي في منظومة عرقية لا ينتمي إليها، فالاعتراف بحقيقة التعدد العرقي - إذ يستحيل دمج عرق في آخر - سوف يساعد المستعربين، ليس فقط في أن يصبحوا متسامحين مع معاصريهم من معتنقي الأديان الأخرى، وإنما أيضاً يساعدهم على أن يكونوا لهم الاحترام، وأن يقبلوهم كما هم، وبلا دافع لفرض أي دين ما عليهم. وإذا ما تم ذلك، فإنه سيقود إلى الاعتراف والاحترام والقبول المتبادل بين كل معتنقي الديانات المختلفة.

من هنا أصبح أنه من نتائج عدم الاعتراف بواقع السودان التعددي، إفراز تغليب الثقافة العربية على الثقافات غير العربية. بمعنى آخر أن التنوع العرقي واللغوي الهائل في السودان، قد أسهم مباشرة في بلورة العنصر الثالث في تاريخ السودان الحديث، ألا وهو العنصرية الثقافية. ولا يزال مضمون التعريف الأساسي للعنصرية، هو الاعتقاد بأن بعض العرقيات متفوقة والبعض الآخر متدنية. ففي هذا يقول روبرت كولينز «وقد بنيت العنصرية عميقة الجذور في السودان على الأساسين التاريخي والثقافي أكثر من بنائها على أساس اللون، وهي أيضاً عنصرية فردية ومؤسسية أكثر من كونها أيديولوجية^(١)». هذه العنصرية، هي التي قادت إلى تقسيم السودان إلى ثنائيات حادة، بين جزء عربي وجزء

(١) المصدر نفسه ص ٢٦.

آخر غير عربي، وبين مسلمين وغير مسلمين، وبين مهمشين على الصعد الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، وغير مهمشين على تلك الصعد، أي أطراف ومركز. فأصبحت الهوية السودانية مصدر نزاع متعدد الوجوه، ومحوراً للصراع السياسي والديني والفكري والقبلي، وهو الصراع الذي حال ولا يزال، دون أن تنمو في خضمه قومية سودانية تتوحد فيها الدولة. مثل هذا المسلك كان يجد الدعم الغير محدد من الدولة، التي كانت وما زالت، تسخر كل إمكاناتها ومؤسساتها التعليمية والثقافية في تجذير هذا المفهوم. لقد قاد استبعاد التنوع التاريخي العرقي إلى مسألة نكران الأصل، سواءً عن جهل أو تعمد مقصود، ومن ثم إلى محاولات حثيثة لمحو التنوع المعاصر، ومن هنا نشأت الحملات المتوالية للأسلمة والتعريب من قبل النخبة النيلية الحاكمة، وفي ذلك تشترك كل الحكومات التي تعاقبت على فترات الحكم ما بعد الاستقلال، المدنية منها والعسكرية، بدرجات متفاوتة من القسوة. إن فرض الهوية العربية، والثقافة العربية إذ هي نقيض التعددية، ما جاء إلا لأنها تخشى الاختلاف، ولا ترضى بما هو أقل من أن يخلع الآخرون عناصر هوياتهم تماماً، وأن يتماهوا معها هي. وهي حالة يستحيل حدوثها، فقط من منطلق طبيعة الإنسان لعرقية، وانسجامه مع خصوصيات التواصل المجتمعي، التي تعنيه نفسياً وثقافياً وتراثياً. وذلك بدليل أن هذا الصراع مستمر لأكثر من ستين عاماً في السودان، فالإعتراف بالتعدد العرقي والثقافي، والعمل الجاد لاستيعاب هذه التباينات، بطريقة جامعة وطنياً، يمكن أن تعد ذلك، بأنها الخطوة الايجابية الأولى والأساسية في طريق حل المعضلة السودانية، الذي سيكتب له النجاح بكل المقاييس.

أصل الإنسان السوداني :

استناداً إلى الدراسات التاريخية، هناك معلومة لا جدال فيها، مفادها أن أصل الإنسان من إفريقيا، بل غالب النتائج تشير إلى أنه من شرق إفريقيا، في المنطقة المعروفة حالياً بإثيوبيا، وهي تشمل عند المؤرخين القدامى، كل من دول إثيوبيا والصومال وإريتريا والسودان. ففي دراسة علمية بعنوان «مدى اتساق التنوع الوراثي الوطني مع جغرافيا وتاريخ السودان» لباحثين سودانيين من معهد الأمراض المستوطنة والأكاديمية الوطنية السودانية للعلوم، قدمت هذه الدراسة في شهر مايو ٢٠١٣م، للنقاش الأكاديمي في حضرة، بروفيسر محمد أحمد الشيخ، مدير جامعة الخرطوم، والذي أدار الحلقة

الدراسية ووصفها بالعلمية والدقيقة. وهي دراسة تطبيقية على المجموعات والهجرات البشرية في السودان، وذلك بتحليل الحمض النووي (DNA)، لدراسة التركيبة الوراثية للمجموعات وعلاقتها ببعضها البعض وأصولها. قدم الدراسة الدكتور هشام يوسف حسن، الباحث في مركز الأمراض المتوطنة بجامعة الخرطوم واختصاصي علم الوراثة والأحياء الجزيئية. إذ قال من ضمن حديثه، «مثلاً نحن اعتمدنا على تحليل الحمض النووي لمعرفة الخارطة الجينية للمجموعات الإثنية السودانية (القبائل) عبر الكروموزوم الذكري الذي لا يُورث إلا للأبناء الذكور والميتوكوندريا الأنثوية التي تورثها الأم لأبنائها من الذكور والإناث على حد سواء، ولأن الأنثى ليس لديها كروموزوم ذكري لذا لا نعرف من أين جاء أبوها، لكننا نعرف بسهولة (من وين جاءت أمها) عبر تحليل الميتوكوندريا الأنثوي، وبالتالي نرجو أن لا يستغرب البعض عندما نقول إننا وجدنا علاقات قُربى وراثية (جينية) بين المسيرية (قبيلة آسيو أوروبية) والدينكا (قبيلة نيلية) لأنهم بتزاوجهم ومصاهراتهم انتقلت جيناتهم ومُعلماتهم الوراثية إلى بعضهم البعض، وهذا الأمر ينطبق على كثير من القبائل السودانية. على سبيل المثال لا الحصر العلاقات الجينية بين النوير والعركيين وبين الجعليين والدينكا والفور والزغاوة والمساليث من جهة، والنوبيين في الشمال من جهة أخرى، هي علاقات مُثبتة علمياً ومختبرياً، في مناطق الجعليين، مثلاً، أخذنا عينات عشوائية من أربع مناطق هي (المتمة، المحمية، الحُرة، كبوشية) فوجدنا أنهم يحملون (9) مُعلمات وراثية مُختلفة؛ فمنهم من يحمل جينات نيلية، هوساوية، بجاوية وحبشية (اثيوبية) مما يدل على الشراء والتنوع داخل المجموعة الواحدة، دعك بين المجموعة ونظيراتها، وهذه ميزة نسبية.»

كشفت هذه الدراسة عن صلة قُربى جينية بين النوبيين والفور والبرقو والزغاوة، أما الجعليون فإن بعضهم يحمل جينات مثل جينات الهوسا والفولاني، فيما يحمل بعضهم الآخر جينات كجينات النيليين (الدينكا والنوير والشلك). وأكدت الدراسة إنتفاء النقاء العرقي تماماً في السودان، بل هناك روابط وأشاج بين الكثير من الإثنيات، التي تظن أنها بعيدة جينياً عن بعضها البعض. كما نفت الدراسة وجود عناصر وسلالات ذات جينات تشابه الجينات العربية، وعللت هذه النتيجة بسبب شح الدراسات الجينية لسكان شبه الجزيرة العربية مما يجعل المقاربة عسيرة، بينما لا يزال يعترك أهل ساس يسوس من اليمين إلى أقصى اليسار في خضم السياسة مما أدى إلى تشرذم أهل السودان..

كل حزب بما لديهم فرحين .. مما خلق نفوراً بين السودانين فيما بينهم فظهر الاستعلاء النوعي بين أهل السودان. ففي ظل تلك العتمة المظلمة، يخرج علماء السودان يبحث علمي جديد، يؤكد مدى اتساق التنوع الوراثي الوطني مع جغرافية السودان.

وفي ذات الاتجاه أشار الدكتور هشام يوسف حسن، إلى أن الدراسة هي محاولة لربط المعلومات التاريخية بالمعلومات الأثرية واللغوية، منوهاً إلى أن الدراسات أشارت إلى أن (النوبة والبرقو والمساليت والزغاوة) من أصل واحد وكذلك الحال للقبائل النيلية الصحراوية. وذكر أيضاً أن هناك علاقة قوية بين النوبيين وقبائل البرقو والفور والمساليت، فضلاً عن العلاقة بين المسيرية والدينكا، إلى جانب العلاقة القوية بين قبائل الهوسا والمجموعة الأوروبية الآسيوية، والعلاقة بين العركيين وقبائل النوير في جنوب السودان. وذكر المشاركون الآخر في هذه الدراسة، بروفييسور منتصر إبراهيم الطيب، عالم الوراثة والأحياء الجزيئية والباحث بمركز الأمراض المتوطنة - جامعة الخرطوم، أن «كل الأدلة الوراثية (وهذا كلام قديم) تشير إلى أن أصل الإنسان الأول من أفريقيا، ومن شرقها وعلى وجه الخصوص من السودان. أما الإنسان القديم جداً فهو من (إثيوبيا)، أما هجرة العرب (العكسية) إلى أفريقيا فهي حديثة نسبياً تمت عن طريق (سواكن ومصوع)، وهي هجرات قليلة جداً مقارنة بتلك الهجرات الكبيرة والكثيفة من شمال وغرب أفريقيا إلى السودان.»

وفي إشارات أخرى لهذه الدراسة العلمية، أن هناك تقارباً بين أوروبا وإفريقيا، أكثر من أي قارة أخرى مما يدل على أنهما شيء واحد، وهذا يدعم ما استنتجه ألان ويلسون بأن كل البشرية ترجع لأم إفريقية، اصطُح على تسميتها بـ «حواء الميتوكوندريا». الشاهد في الأمر عندما نقارن نتائج هذه الدراسة العلمية مع تلك الاكتشافات الأثرية، نجدها قد أثبتت بلا منازع مدى اتساق التنوع الوراثي، للإنسان السوداني مع جغرافية وتاريخ السودان. وهي بذلك دراسة وثائقية للتراضي الوطني، من أجل السودان واحد موحد بلا تفضيل لعرق على آخر^(١).

(١) صحيفة الراكوبة الإلكترونية بتاريخ ٢٨/١٢/٢٠١٣م.

كذلك على الرابطة <http://www.sudanforum.net/showthread.php?t=194547>

تاريخ حضارات السودان القديمة:

حسب الحفريات التي وجدت مؤخراً في بعض أجزاء في شمال السودان، يعتبر السودان من أقدم البلاد التي سكنها الإنسان، بل هناك رأي يفيد بأن بداية إكتشافات الإهرامات واللغة الهيروغليفية، كانت في السودان ومن ثم اتجهت شمالاً، وفي مواقع أخرى هناك ما يفيد بأن اللغة المروية، هي أول لغة صوتية في إفريقيا، وذلك أن الهيروغليفية هي لغة معنى إذ هي تتجسد في ترميز المعاني لا أصوات الكلمات، كما هو الحال في اللغات الأبجدية المختلفة. هنا يرى بعض المؤرخين أن تاريخ السودان الموثق يبدأ منذ حوالي خمسة آلاف سنة، ويستندون في ذلك على مصادر النقوش النوبية والهياكل العظيمة في بعض جهات السودان، وكذا الصناعات الحديدية والنحاسية المتطورة التي وجدت في تلك المقابر الأثرية.

والوضع هكذا قام في السودان كيان سياسي وحضاري، سُمي بمملكة كوش في الفترة الممتدة من حوالي ٨٥٠ ق.م إلى ٣٥٠ م^(١). لكن استخدام إسم كوش لإقليم سوداني كما أشارت إليه د. سامية بشير دفع الله، يرجع ظهوره إلى فترة الدولة المصرية الوسطى ما بين ٢٠٥٠ ق.م إلى ١٧٨٦ ق.م، وفي موقع آخر ترى د. سامية بشير دفع الله أن إسم كوش ارتبط أيضاً في الوثائق القديمة بمملكة كرمة (٢٥٠٠ ق.م - ١٤٥٠ ق.م). لذا ذُكر إسم كوش في وثائق كثيرة من خارج وادي النيل، مثلاً في الوثائق الآشورية وكذلك تم ذكره مرتين في الكتاب المقدس، أي التوراة مرتباً بإسم الملك ترهاقا. وحسب كتابات المؤرخين، وكما ورد أيضاً في الآثار المصرية القديمة، فإن إسم «كوش» قد أطلق على السودان منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وعرف أهله بالكوشيين وحكامهم «بملوك كوش»، وظل هذا الإسم علماً على الدولة والشعب والملوك، حتى عصر مملكة مروحي آخر الممالك الكوشية القديمة، التي إنتهى حكمها في القرن الرابع الميلادي. وعلى هذا الأساس تكون مملكة كرمة/ كوش قد بدأ تأسيسها منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وهي المملكة التي تم إكتشاف بعض آثارها في منطقة كرمة الحالية.

(١) دكتورة سامية بشير دفع الله، تاريخ مملكة كوش: نبتة ومروي، (الخرطوم بحري، دار الأشقاء للطباعة والنشر، ٢٠٠٥ م). ص ٢.

تلى مملكة كوش قيام مملكة نبتة في القرن التاسع قبل الميلاد، ثم مملكة مروى فنوباتيا فالمقرة وعلوة. وفي مواقع أخرى يتضح لنا أن إفريقيا جنوب الصحراء بما في ذلك السودان، قد عُرِفَت في المصادر اليونانية والرومانية بإسم إثيوبيا، وعرف سكانها بالإثيوبيين. واشتهر هذا الإسم في ذات الرقت للدلالة على سكان المملكتين الكوشيتين نبتة ومروى وسكانهما. ومعنى الإسم، السكان ذوي البشرة السوداء، أي «السود»، كما استخدمتها تلك المصادر. وأيضاً استخدمت المصادر الإثيوبية إسم النوبا للدلالة على سكان مملكة مروى. ثم جاء العرب وأضقوا إسم السودان أي «السود» بنفس الدلالة التي استخدمها اليونانيون والرومان للإسم. وإلى جانب إسم السودان، خصصت المصادر العربية إسم النوبا للدلالة على سكان مملكتي علوة والمقرة. واستخدم العرب إسم الحبش للدلالة على سكان إثيوبيا الحالية، وكذلك في بعض الأحيان للدلالة على سكان السودان. كما وردت في المصادر اليونانية والرومانية، معلومات غزيرة عن سكان السودان ومدنهم، في أحمد إلياس حسين (الوعي بالذات وتأسيس الهوية) نقلاً عن ما جاء في السودان في كتب اليونان والرومان، لسامية بشير دفع الله، إذ ذكرت أن ما نقله بلييني عن بيون، الذي عاش في بداية القرن الثالث قبل الميلاد، يدل على أسماء أكثر من أربعين مدينة ومناطق حضرية بين دارفور والبحر الأحمر، وذكر أسماء ١٨ قبيلة لا يوجد من تلك الأسماء اليوم سوى النوبا. ومن أمثلة تلك الأسماء بين النيل الأزرق والجبال، السمباريون والقاليجي والأسخان وهم مجموعة من القبائل يسكنون الجبال. إذاً يفسر لنا هذا التاريخ، أسباب إمتناع عرب الجزيرة العربية لقبول السودانيين في حظيهم.

مما سبق، فإن كوش هو الإسم الذي أُطلق على السودان، من الشمال إلى حدود مملكة علوة في الجنوب، منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد. لكن في واقع الأمر، ليس هنالك إسم واحد أُطلق بصورة عامة على تاريخ السودان القديم قبل عصر الممالك المسيحية. على سبيل المثال لم توضح الدراسات التاريخية القديمة على وجه التحديد، حدود حضارتي نبتة ومروى شرقاً وغرباً وجنوباً، فقط هي تنحصر على المناطق النيلية الواقعة شمال الخرطوم. لكن أثبت التنقيب الأثاري وجود آثار الكوشيين، منذ عصر الثقافات المبكرة في مناطق كسلا بشرق السودان، ووادي هور بغرب السودان. وفي موقع آخر، أشارت بعض الدراسات التاريخية، أن أقدم الهياكل البشرية التي اكتشفت لسكان شمال السودان، ألمحت إلى أن أصولهم ذات صلة

بالعناصر القوقازية والمغولية. إلا أن د. سامية بشير دفع الله، ترى أن خلاصة أبحاث الغربيين المبكرين هذه، والتي تشير إلى صلة سكان شمال السودان بالقوقازيين والمغوليين، قد أخذت الطابع العنصري، وذلك لإبعاد العنصر الأسود عن الحضارات القديمة في السودان، بحكم أنه عنصر غير خلاق ولا يملك القدرة على الإبداع - حسب اعتقاد الغربيين^(١). ففي هذا الصدد أثبتت د. سامية بشير دفع الله لاحقاً، أنه عندما أُعيد فحص الآثار التي تم الكشف عنها في شمال السودان، في منتصف القرن العشرين، بواسطة جيل مختلف من الباحثين، أثبتت دراسات هذا الجيل الجديد، أنه بالرغم من دخول بعض المهاجرين واستيطانهم في المنطقة الشمالية من السودان، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، إلا أنه لم يطرأ تغير عرقي ذي بال، على المكونات العرقية الرئيسة لسكان المنطقة. وفي دراسة أخرى ذكرت د. سامية بشير دفع الله، أن التركيبة العرقية للكوشيين في كرمة في الألف الثاني قبل الميلاد، لا تختلف عن تركيبة السكان الحاليين في شمال السودان اليوم. ويعني هذا أن الهجرات أو الجماعات التي كانت تصل إلى شمال السودان، اختلطت بالسكان المحليين الذين حافظوا على السلالة العرقية الكوشية، منذ أربعة آلاف سنة أو يزيد. إذاً من هذا المنطلق، تزداد قناعتنا بأن الغرب لم يكن رصيناً وموضوعياً، بما فيه الكفاية لدراسة تاريخنا على النحو الصحيح وبدون تزييفات فجّة، والحال كهذا تستدعي الضرورة، تضافر جهود أبناء السودان في إعادة كتابة تاريخ السودان، بمنهج علمي. وفي هذا الصدد، الواجب الوطني والأخلاقي يقتضيان أن نثمن على جهود د. سامية بشير دفع الله ود. أحمد إلياس حسين أبو شام، لما قاما به - حسب معرفتي المتواضعة حتى الآن - في البحث والتنقيب للمراجع القديمة منها والأثرية، التي وضحت لنا الكثير من جوانب تاريخ السودان المخفي.

تدل كتابات د. سامية بشير دفع الله، أن المجتمع السوداني الذي أطلق عليه إسم الكوشيين، هو سلالة ذاك الجنس الذي أقام مملكتي نبتة ومروي، وهو نفس السلالة التي وجدت آثارها في مقابر جبل موية في الجزيرة، وهو نفس السلالة التي توجد الآن في جبال النوبة.

وأيضاً يضيف د. أحمد إلياس حسين أبو شام، في السودان: الوعي بالذات وتأسيس

(١) المصدر نفسه. صفحات ٣٤ - ٤٢.

الهوية الجزء الأول^(١)، أن شعوب النوبا التي كانت تسكن الصحراء الغربية في مناطق كردفان ودارفور الحاليين، كانت منذ القرن الثالث قبل الميلاد تتجول وتستقر في بلاد كوش ما بين الصحراء الغربية وكسلا شرقاً ودنقلا شمالاً. وذكر في مواقع أخرى أن مملكة علوة قد امتدت حدودها شرقاً إلى تفلين، عند دلتا القاش شمالي مدينة كسلا الحالية، وغرباً إلى مناطق دارفور. الجدير بالذكر أن العرف السائد في السودان، أنه يطلق لفظ «النوبا» للدلالة على سكان أقصى شمال السودان، خاصة لقبائل الدناقلة والمحس والحلفاويين. أما لفظ «النوبة» فيطلق على قبائل جبال النوبة، بجنوب كردفان.

الشاهد في الأمر، أنه في القرن العاشر الميلادي، كان السودان منقسماً إلى عدة ممالك من ضمنها مملكة النوباتيا وعاصمتها فرس في الشمال، إذ تمتد حدودها من الشلال الأول إلى الشلال الثالث، ومملكة المقررة في شمال السودان وعاصمتها دنقلا، ومملكة البجا في شرق السودان ومقر ملكها في هجر، ومملكة علوة في الوسط على النيل الأزرق وعاصمتها سوبا، ومملكة الداخو في دارفور الحالي، إذ تحولت عاصمتها عدة مرات من جبل مرة إلى جبل أم كردوس وآخرها فكلوا. الجدير بالذكر هنا وحسب ما ورد في الدولة والمجتمع في دارفور، لمؤلفه بروفيسر ر. س. أوفاهي، أن مملكة الفور هي إمتداد لمملكة التنجر والتي هي بدورها إمتداد لمملكة الداخو^(٢). فدراسة أوفاهي هذه قد تقودنا بأن نستنتج أن سكان الممالك الثلاثة - الداخو والتنجر والفور - هم من سلالة واحدة، فربما قام فرع من الداخو، الذي لم يكن في وِد مع الأسرة الحاكمة وابتعد من مركز السلطة، بتأسيس مملكة التنجر عندما شعر ذاك الفرع أن المملكة قد ضعفت وفي طريقها للإنقراض. هذا الاستنتاج قد يكون متسقاً مع ما ذكره د. أحمد إلياس حسين أبوشام، أن أسماء القبائل - عدا النوبا والبجة - المتعددة والمعروفة حالياً في السودان، ترجع إلى ما بعد القرن ١٥ الميلادي. وبالتالي وإلى أن تثبت دراسات تاريخية أخرى العكس، فإن أغلب الظن أن التنجر هي عشيرة من ضمن عشائر الداخو المتعددة، وبالتالي يكون

(١) دكتور أحمد إلياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأسيس الهوية، الجزء الأول، (الخرطوم:

مكتبة الوطنية أثناء النشر، الطبعة الثانية ٢٠١٢م). صفحات ٢٤ - ٣٠.

(٢) ر. س. أوفاهي، الدولة والمجتمع في دارفور، ترجمة: عبد الحفيظ سليمان عمر، (القاهرة: مركز

الدراسات السودانية، ٢٠٠٠م) صفحات ٢٣ - ٣٠.

المؤسسين لمملكة التنجر هم من سلالة الداجو. وكذا بالمثل قامت مملكة الفور عندما أيقنت إحدى عشائر التنجر المبعدة من الحكم أن المملكة قد انهارت.

بناءً على المعلومات الواردة في المخطوطات التاريخية، عاشت الممالك النوبية المسيحية - نوباتيا والمقرة وعلوة - هذه حتى العام ١٣٢٣ م، عندما اعتنق غالبية ملوك وحكام وسط وشمال السودان الديانة الإسلامية، ومن ثم نشأت ممالك وسلطنات إسلامية، على أنقاض الممالك المسيحية التي كانت في عهدها متمسكة بأصولها الإفريقية المحلية. فالممالك الإسلامية الجديدة لم تتبنى الإسلام كدين جديد فقط، بل تبنت معه العروبة كإثنية للحكام الجدد. والممالك الإسلامية التي نتحدث عنها هي: سلطنة الفونج (١٥٠٤ م - ١٨٢١ م)، ومملكة تقلي (١٥٣٠ م - ١٨٢ م)، وسلطنة الفور (١٦٥٠ م - ١٩١٦ م)، ومملكة المسبغات (١٦٦٠ م - ١٧٥٠ م). فالتحول الديني التاريخي، أي من الممالك المسيحية إلى الممالك الإسلامية، قد قاد صفوة تلك الممالك، إلى تأسيس بدايات التنكر للأصل العرقي والثقافي، والهروب منه، تيمناً بمبدأ أن الإلتواء الديني لا يكتمل إلا بالإلتواء للعرق، الذي نزلت بلغته هذه الديانة، وبالتالي السير في هدم الإرث الحضاري الموروث.

وبعيداً عن التعاطي العاطفي لإدعاءات العروبة، أولاً، علينا بالضرورة أن ننظر بعقلانية وبتمعن، لطبيعة التجارة الداخلية والخارجية كمؤشر من مؤشرات التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي كانت سائدة في مملكة الفونج، وما يمكن لتلك المعاملات التجارية أن تؤثر وتتأثر بالمجتمعات المحلية. فالمعاملات التجارية هذه، قد تناولها الكثيرون من الرحالة إذ تعرضوا بالتفصيل للسلع المتداولة بين هذه المملكة وبين جيرانها من الممالك مثل دارفور وتقلي، وقبائل الجنوب مثل الشلك والباريا والدينكا، وكذا التجارة الخارجية بين مملكة الفونج ومصر والحشة والجزيرة العربية وحتى الهند، حيث كانت مملكة الفونج آنذاك تمثل المركز الإقليمي الذي تتجمع فيه هذه التجارة. فدولة بهذا الاتساع وبهذه العلاقات التجارية الواسعة الداخلة منها والخارجة، تفرض علينا مبدئياً، رفض فجائية قيامها بأنها دولة عربية من صلب إفريقيا، الذي يدعيه البعض. وثانياً، تتطلب الضرورة مراجعة دقيقة للقول الذي يتداوله بعض الكتاب والمفكرين، أن الحكم التركي هو الذي صنع الحدود الجغرافية للدولة

السودانية الحديثة، وفي هذا تقليل لأي جهد قام به حكام مملكة الفونج، ومن تحالف معهم من حكام المشيخات في الشمال. وثالثاً، تقتضي المصلحة الوطنية ضرورة إعادة كتابة تاريخ السودان، لأنه من حق الأجيال الحالية والقادمة أن تتعرف على تفاصيل التاريخ الصحيح لبلادها، وإعادة الكتابة هذه يجب أن تستند إلى الحفريات والوسائل العلمية الحديثة، على أن تشمل هذه الدراسات العلاقات الاجتماعية لسكان السودان القدماء.

مما سبق يتضح لنا أن التفسير العقلاني لنشأة مملكة الفونج، وكذا الممالك الأخرى كدارفور، من شأنه أن يبعد شبح الوقوع في التخمينات غير العقلانية، المصاحبة للتصور بأن هذه الممالك نشأت فجأة، بل يجب أن يؤدي التفسير العقلاني، إلى إيقاف هذا السيل من التفكير العنصري، الذي يعزو قيامها إلى وجود العرق العربي، المؤدي في النهاية إلى إنهاء أي دور للعنصر الغير عربي، كما أن الإدعاء الذي مفاده بأن العنصر العربي هو الذي أسس مملكة الفونج، يستبعد حقيقة الممالك المسيحية التي كانت سائدة قبل الممالك الإسلامية، وأيضاً يستبعد كل العلاقات لاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة بل مزدهرة، مما شجع أصلاً الصلات التجارية مع الجزيرة العربية، وفي ذلك يشير بعض المؤرخين أن التجار العرب أنفسهم قد تعلموا لغة البجا من أجل مصالحهم التجارية.

الإدعاءات بالعروبة، تقودنا إلى طرح كثير من الأسئلة الموضوعية لهذا التحول من ضمنها؛ لماذا هذا التنكر للأصل؟ هل لأن التاريخ القريب للإنسان السوداني مرتبص بالاستعمار والعبودية - 1821م؟ أم لأن الإسم «السودان» مرتبط بلون بشرة الإنسان، وأن اللون الأسود يعنى جزافاً العبودية؟ ولماذا لا يفتخر الجيل الجديد من سكان الإقليم الشمالي، بأجدادهم الذين استعمروا مصر من قبل؟ أم لأن أصل الأجداد يحمل اللون الأسمر، أو الأسود المعروف جزافاً بأنه لون الزوج؟ وهو ليس كذلك. وهل يمكن لأية مجموعة بشرية أن تتطور دون أن يكون ذلك التطور قائم على الأصل؟ عندما ناصر أهل غرب السودان الإمام محمد أحمد المهدي، الدنقلاوي المنحدر من الإقليم الشمالي، ضد الاستعمار التركي، ألا يمثل ذلك قمة الوطنية؟. ويضيف لنا د. الباقر العفيف أسئلة أخرى، نلخصها في الآتي: لماذا قمنا نحن النوبة المستعربين، متقمصين دور العرب، بتحويل الدولة إلى آلة لصنع الحروب، بدلاً من أن تكون أداة للبناء القومي؟ لماذا وجدنا أنفسنا في حرب مع كل القوميات الأخرى في السودان تقريباً، سواءً في الجنوب أو دارفور أو جبال النوبة أو جنوب النيل الأزرق أو الشرق؟ كيف

استطعنا، ونحن بلد فقير، من توفير الأموال اللازمة لمقابلة تكلفة أطول حرب في القارة الأفريقية وربما في العالم بأسره؟ ولماذا جاءت حروبنا على هذا القدر من القذارة واللاأخلاقية؟ ولماذا يتم توجيه التهم إلى كبار المسؤولين في بلادنا بجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الإبادة الجماعية، في حروبهم ضد مواطنيهم؟ ما هي الدوافع الباطنة لسياسات التعريب والأسلمة في مناطق معينة من البلاد؟ لماذا نريد تغيير هويات الآخرين؟ لماذا بترنا من تاريخنا وتراثنا أطول أجزاء منهما؟ لماذا وضعنا أقنعة عربية على وجوهنا ثم طفقنا نصنف شركاءنا في الوطن عبيداً؟ ولماذا ألحقنا أنفسنا بالعالم العربي بهذه الوضعية الدونية؟ لماذا نريد أن نلعب دور الوكيل الذي ينفذ نيابة عن العرب مهمة ثقافية في السودان وما وراءه؟ لماذا ورطنا بلادنا في كل هذه الحروب والشقاوات؟ ويمكن لقائمة الأسئلة أن تطول، نسبة لما تحتويه المشكلة السودانية من تعقيدات، يصعب الوصول إلى الحلول المرضية حولها قريباً^(١). نخلص بأنه على الرغم من اشتراك عرب السودان في اللغة والديانة الواحدة، إلا أنهم لا يشكلون جماعة متماسكة، يتضح لنا هذا بصورة جلية في الشمال النيلي للسودان، إذ يبدو أن إدعاء العروبة هدفه الأساسي السيطرة على مقاليد السلطة. يدعم زعمنا هذا ما ذكره روبرت كولنيز أن عرب السودان «يقسمون بشكل متعسف إلى حد ما إلى مجموعتين: النوبيين المُعرَّبين والجعليين، ويقصد بالأخيرين أولئك الذين يدعون التحدُّ من إبراهيم جعل، وهو من نسل (العباس) عم النبي، وقد عاش وسط جماعات استوطنت النيل بطوله، والمجموعة الأخرى تضم بدو وأشباه بدو جهينة ويعيشون في السهول^(٢)».

المجموعات الإثنية المختلفة:

كما ذكرنا سابقاً، توضح لنا الدراسات التاريخية، أن إسم إثيوبيا كان يطلق بصورة خاصة في المصادر اليونانية والرومانية على منطقة جمهورية السودان الحالية. وعرفت المنطقة الواقعة غربي نهر النيل بليبيا، وعرفت المناطق الصحراوية غربي النيل بالصحراء الليبية. أما منطقتا إثيوبيا وإريتريا الحاليتين، فقد عرفتا في المصادر العربية

(١) دكتور الباقر العفيف، حوار الهوية ٢ (جريدة أجراس الحرية، الإثنين ٢/٤/٢٠٠٩م).

(٢) روبرت أو. كولنيز، تاريخ السودان الحديث، ترجمة: مصطفى مجدي الجمال، مراجعة: حلمي

شعراوي، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠٨م). ص ٢١.

بين وادي حلفا شمالاً ونمولي جنوباً والجنية غرباً والبحر الأحمر شرقاً، وقد عُرِفَت هذه السلالة - في السودان والحبشة - بإسم السلالة الكوشية. وبعد أن تم انتشار الإنسان في قارات العالم، وتكاثرت سلالاته حدثت هجرات لأسباب كثيرة من وإلى قارات العالم، وبخاصة قارات العالم القديم آسيا وإفريقيا وأوربا. هذه الهجرات خاصة تلك التي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، قد أثرت كثيراً على تاريخ ولغات المنطقة - الحبشة والسودان وغرب النيل - ومن ثم على تكوين الإثنيات والقبائل الحالية.

التعرف على أصول سكان السودان الحاليين ذا أهمية قصوى، لأن الإستعلاء العرقي وما يتبعه من سياسات الإقصاء للآخرين، التي تختلقها وتمارسها النخبة النيلية الشمالية الحاكمة، كلها قائمة على نكران الذات وإدعاء الإنتماء العروبي، ففي قناعتنا الراسخة أن مثل هذا المسلك في مجمله، هو صراع الإنسان للإنسان للسيطرة على الآخر، مستغلاً في ذلك العروبة بإعتبارها - إعتقاده - إثنية ذات مجد رفيع، وأن الإنضمام إليها يعطي المنسويين إليها - المستعربين - مكانة اجتماعية أعلى على كل الإثنيات الأخرى، مما يتيح لهم فرصة السيطرة على كل البلاد، ومثل هذا الصراع الذي هو من أجل إثبات العروبة، هو في ذاته الذي يشكل أسس المشكلة السودانية. بالطبع لا غضاضة في تعلم لغة ما، طالما مهام اللغات الأساسية هي لتلقي العلم وتعليمه، فإذا كان تعلم اللغة العربية، في ذلك الزمان، مسألة ملحة من أجل فهم الإسلام على حقيقته، في المقابل يصبح تعلم اللغة الإنجليزية في عصرنا هذا، ضرورة حتمية لكل سكان العالم، ليس من أجل الإنجليز الذين كانت إمبراطيتهم لا تغيب عنها الشمس، بل من أجل التكنولوجيا الحديثة، التي تسيطر عليها أمريكا، لتفوقها على أية دولة أخرى في العالم في هذا المجال. لكن الشيء الذي لا مبرر له هو إدعاء السودانيين للإنتماء العربي عرقياً، والحديث السابق يبرهن علمياً، أن سلالات الإنسان السوداني، هي إفريقية خالصة بالرغم من المصاهرات من هنا وهناك، وبغض النظر عن لون بشرته، الذي يصبغه بلون خاص يميزه عن بقية شعوب العالم، وبالأخص التمييز الواضح في لون البشرة والبنية الجسمانية، اللتان تشيران إلى صعوبة، إن لم تكن استحالة مصداقية القول، بأن السودانيين من أصل سكان الجزيرة العربية. فالتغيرات المناخية والبيئية والهجرات، أدت إلى إنتاج القوميات الحالية من السلالات القديمة. فقبائل البجا المعروفة الآن هي أسلاف المِجَبَّاري

والترُّجُلدايت والبليمين^(١). فالمعلومات التاريخية توضح، على سبيل المثال أن حدود بلاد البجا تبدأ من الشمال من منطقة الصحراء الشرقية، الممتدة من الأقصر على النيل غرباً وحتى البحر الأحمر شرقاً، وجنوباً تمتد حتى منطقة السهل الشمالي للهضبة الإثيوبية، لذا من حق قبائل البجا القانوني والتاريخي لتمسك بمثلث حلايب. وفي مواضع أخرى تشير المصادر التاريخية أن منطقة الصحراء الكبرى، كانت مأهولة بالسكان وتمتع بكميات غزيرة من الأمطار، وكانت بها بحيرات وأنهار دائمة الجريان وغابات وغطاء نباتي غزير، مما يعني أنها كانت مأهولة بالسكان. فتاريخ لسودان في كل مراحلها يرتبط ارتباطاً وثيقاً، بالمناطق الصحراوية الواقعة إلى الغرب من النيل، كما أن قدماء سكان شمال السودان ينتمون إلى سلالة شعوب شمال إفريقيا المظلة على البحر الأبيض المتوسط، وكان لهم نفس لون البشرة الداكن مثل الأفارقة اليوم في جنوب الصحراء^(٢).

فقبائل الجعليين والدناقلة والشايقية والبرابرة والمحس وآخرين من الشماليين، ينتمون إلى النوباتيين الذين أتوا من الصحراء الغربية - حسب اتفاق المؤرخين - سواء من منطقة الواحة الخارجة المقابلة لصعيد مصر شمال غربي مدينة أسوان، أو من المناطق الصحراوية الواقعة جنوبها. ويصدق هذا أنه لا تزال صلات سكان النيل حتى العصر الحديث قوية بالمناطق الغربية، ويتضح ذلك في تراث بعض القبائل في المنطقة، والذي ربط تحركاتهم من النيل، مثل تراث قبائل القرعان والتبو والتنجر.

في موقع آخر يصف روبرت كولينز، مجموعات سكانية سودانية مسلمة بأنهم «أفارقة جاءوا منذ عهود سحيقة من الجنوب الشرقي، ليستقروا حول جبل (مرة) الضخم وسط دارفور (أرض الفور). وقد كان معظمهم فلاحين يتحدثون لغات النيو-صحراوية تربطهم لغوياً بالنوبة وب(الماساي) في تنزانيا^(٣)». إذاً هذا دعم آخر للزعم بأن سكان منطقة شرق إفريقيا، التي تمتد من الصومال جنوباً حتى أقصى شمال السودان، هم من أصول واحدة.

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) روبرت أو. كولينز، تاريخ السودان الحديث، ترجمة: مصطفى مجدي الجمال، مراجعة: حلمي شعراوي، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠٨م). ص ٢٣.

إذاً الشاهد في الأمر، أن كل المصادر لم تتناول اجتياح القبائل العربية للأراضي السودانية، وكل المعلومات المتداولة والخاصة باجتياح القبائل العربية للسودان، قد استندت على الروايات الشفاهية المتداولة بين القبائل في السودان، فهذه المعلومات لا تعدو كونها قصص وروايات، لا تستند إلى وثائق ملموسة، وبالتالي تتناقض قيمتها المعلوماتية بمرور الزمن ومع كثرة الألسن المتناقلة للمعلومة. مثال ذلك يصعب تصديق المعلومة التي مفادها، أن أغلب القبائل السودانية تنتسب إلى العباس، عم النبي محمد ﷺ. فإذا كان الغرض أصلاً، هو الانتساب إلى نقاء الدم العربي القرشي، هذا يقودنا إلى السؤال الموضوعي التالي! لماذا لا نجد أية مجموعة اجتماعية سودانية، تنسب نسبها لأبي جهل، وهو أيضاً عم النبي محمد ﷺ؟. ففي إشارة موضوعية لتلك الهجرات العربية، يوضح د. أحمد إلياس حسين، «أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من غير العرب، وليس في الملة الإسلامية عرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعته عربي». فاللغة العربية في مفهوم تلك المجتمعات لم تعد لغة جماعة عرقية محدودة فقط، بل أصبحت لغة كل من يخاطبه الإسلام، وكل من يدخل الإسلام أو ينضم إلى المجتمع الجديد من غير المسلمين. فاللغة العربية بلورت هوية ذلك المجتمع الجديد. وداومت أغلب الشعوب داخل حدود الخلافة على التمسك ببعض عادات العرب، باعتبار تلك العادات جزءاً من مكونات الهوية الجديدة. ويشير أيضاً د. أحمد إلياس حسين، إلى أن اللغة العربية كانت الرابط بين جميع المسلمين. فسكان جمهورية جنوب السودان ليسوا زنجياً، بل هم في تصنيف علماء الأجناس شعوب نيلية وهي خليط بين العنصرين الزنجي والحامي. والزنج يتواجدون في قليل من المواضع في إفريقيا مثل بعض الأماكن في الغابات الاستوائية.

مما تقدم يبين لنا التاريخ أن سكان السودان هم من سلالات إفريقية أصيلة، دخلت عليها عناصر عربية من الجزيرة العربية، منذ ما قبل التاريخ الميلادي بغرض التجارة، لما عرفت المنطقة بثراء مواردها، هذه الهجرات العربية كانت بأعداد قليلة، وحتى بعد ظهور الإسلام لم تحدث فتوحات إسلامية بجيوش كبيرة للسودان، وبالتالي فإن علماء الدين الذين أتوا للسودان للتبشير بالدين الإسلامي، لم يكونوا من العرب، إلا القلة.

وبهذا يكون تكوين الإثنيات والعرقيات والقبليات لسكان السودان الحالية، هي نتاج لمصاهرات سكان السودان واثيوبيا الحالية وغربي النيل، مع تأثير قليل من الهجرات العربية. لهذا عندما نتحدث عن التكوين العرقي والإثني والقبلي لسكان السودان، بالضرورة أن نضع في إعتبارنا تطور الإنصهار التاريخي التدريجي لسكان هذه المناطق الثلاثة. وعندما نشير إلى الإثنية، أي إلى خصائص ومواقف أولئك الذين يعتبرون أنفسهم، ويعتبرون من قبل الآخرين بأنهم يشكلون جماعة إثنية مختلفة، يعني ذلك أن هناك اتفاق عام، على أن الإثنية شكل من أشكال الوعي بالذات، حول المظاهر الثقافية ذات ديناميكية ولكنها محاصرة بالبعد الأيديولوجي، وبذا يعرف معظم علماء علم الاجتماع، الإثنية على أنها وحدة أو جماعة من السكان الرابط بين أفرادها، أنهم منحدرون من أصل واحد ويقطنون في موقع جغرافي، ويشتركون في اللغة وربما في الدين أيضاً^(١).

التطهير الثقافي في السودان :

عندما ننظر لمكونات السودان الاجتماعية، إذ تحتوي تلك المكونات على ٥٩٧ قبيلة، وما يفوق ١١٠ لغة، وفوق ذلك هناك التباين الواضح في مناخات المناطق المختلفة، من صحراء جرداء في الشمال إلى الغابات الإستوائية في الجنوب، ومن سواحل البحر الأحمر في الشرق إلى المرتفعات الجبلية في الغرب، كلها أدت إلى اختلاف في نمط الحياة. وهذا التعدد القبلي والاختلاف المناخي، يؤكدان لنا تعدد الثقافات الإقليمية والمحلية. وحتى تُكوّن ثقافة قطرية موحدة نفتخر بها، يجب أولاً، الاعتراف والاحترام لهذا التعدد الثقافي الغني، ففي ذلك نستطيع أن نوقف مساعي الإبادة الثقافية، وبالتالي السماح لهذه الثقافات أن تنمو صيبياً.

لكن دعنا نعرف ماهية الثقافة. في البدء يجب أن نعترف أنه ليس هناك تعريف دقيق لمصطلح الثقافة، لذا أصاب مفهوم الثقافة غموضاً كبيراً، فارتبطت به علات عديدة، خاصة في مجتمعنا السوداني، منها الاستعلاء على الآخرين، أي النظرة الدونية للآخر. ورغم هذا الغموض في مفهوم الثقافة، نجد أن بعض المجتمعات يسندونها إلى كل المتعلمين وفي كل الاختصاصات، وآخرون يعرفون الثقافة، بأنها متعلقة بالفن والرسم

(١) دكتور أحمد إلياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، الجزء الأول، (الخرطوم: فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر، الطبعة الثانية ٢٠١٢م).

والنحت والتصوير والغناء، أى بكل ما تعارف عليه الناس من الجماليات. وكلا التعريفين غير دقيقين، لذا يمكن تبسيطها لأغراض هذا الكتاب، بأنها الطريقة التي ينظم ويدير بها مجتمع ما نفسه وتميزه عن المجتمعات الأخرى، بمعنى آخر أن الثقافة هي الحراك البشري المتكامل. ينطلق هذا المفهوم، من أن الثقافة تتكون من مجموعة معقدة ومتحركة من قيم ومعتقدات ونظم وأنماط فكرية، طورها المجتمع المعني عبر وجوده الزماني والمكاني، ليؤكد بها بقاءه في بيئة طبيعية وبشرية خاصة به. ففي هذا ربما يتفق الكثير من الناس على أن الثقافة قد تعني، ذلك الكل من الرؤى والمفاهيم والمعارف والأفكار والأخلاق، وما ينتج عنها من تقاليد وتجارب وقيم وأعراف، التي تبناها الجماعة من خلال ما يطرحه أفراد ملهمون من آداب وفنون وفكر وعلوم، وما اكتسبته الجماعة من معتقدات دينية، وعلى أن هذا الكل هو الذي يحدد نظرة الجماعة وإنسانها إلى الكون والحياة، ويترتب عليه سلوك الإنسان ومعاشه وما يوضع من نظم وقواعد اجتماعية لتنظيم الحياة في داخل المجتمع، وتهيئة المناخات المناسبة لحياة الإنسان وتبديد مخاوفه وتثبيت جنانه لمجابهة تحديات الحياة ومعضلاتها. وإن هذا الكل قد كان لعناصره ومكوناته وجود في حياة الإنسان منذ أن نشأت المجتمعات الإنسانية الأولى، وله دور جوهري في تطور حياة الإنسان ومجتمعاته وحضارته وبيئته، وهو ما يعني أن أي مجتمع إنساني لم يكن لديه أي فراغ ثقافي، مهما كان قدر ذلك المجتمع من التقدم أو التخلف وقدر عناصر مكوناته الثقافية من الشراء أو الضعف.

إذاً الأفراد في المجتمع، ليسوا فقط متأثرين بثقافتهم ولكنهم في الأساس، يساهمون في تشكيل تلك الثقافة، حسب تموضعات مكانة الفرد الاجتماعية داخل النظام الهرمي، والذي يحدد وجوده والمجموعة التي ينتمي إليها على أساس قوتها الاقتصادية. من هذا التعريف الأخير الشامل، نشأت سياسات الإقصاء الثقافي، ومن ثمّ التطهير الثقافي لثقافات السودانيين الذين لا ينتمون إلى منطقة النيل الشمالي، فبينما نستمع إلى موسيقى الروك والجاز العالمية وما أنتجته الموسيقى العربية، في الإذاعة السودانية المرئية منها والمسموعة، لا نجد أثراً لأغاني وفنون ومسارح أهل السودان، في الغرب أو في الشرق أو في الجنوب ما عدا في الفترات الأخيرة، وعلى استحياء من حكام المركز. والسبب ليس لعدم وجود إمكانيات مادية وفنية، ولكن السبب هو النظرة الدونية التي تسيطر على ذهنية نخب الشمال النيلي، القائمة على أمر وسائل الإعلام، لكل ما لا يعتبر معياراً

متناسبا، مع ما اعتاد عليه أنه ثقافة، أو ما لا يوافق مزاجه الشخصي. كل هذه اعتقادات وتوجهات متخلفة ورثوها من المستعمر.

إن القول بأن الثقافة هي أداة تغيير وفضة، يأتي من أن وظيفتها الحقيقية في المجتمع، هي إنشاء وإبداع وتجديد المفاهيم والنظريات والقيم، وتطوير المعايير والأطر التي تستكشف وتشكل الحلول للتحديات والمعضلات التي تواجه المجتمع، وإبدال البني القديمة بأخرى جديدة، وليست وسيلة أو أداة للمباهاة والوجاهة الاجتماعية. يحمل عبء هذا التغيير مبدعون ومبتكرون ومفكرون حقيقيون، همهم الأول هو إيقاظ ضمير الأمة وعقلها، بالكشف عن مواطن الخلل ومواقع القصور التي تعمق تقدم الأمة وتقعدها عن ارتياد آفاق المستقبل، وطرح الحلول الدافعة لرقبها وتقدمها. هذا بجانب أنها تكشف عما تنطوي عليه الطبيعة من ثراء وجمال، وعما في النفس البشرية من قوى الخير والشر وتهيئ بذلك المناخات الإيجابية للفعل، الذي يقود للنهضة والتقدم والبناء الحضاري. ففي ذلك يكون التحدي، الغوص عميقاً في دواخل الثقافات المتعددة، لخلق عملية تكاملية لهذا التعدد الغني بالابداعات.

المسألة الثانية والتي لا جدال حولها، هي ديناميكية التطور الثقافي على مر العصور، ففي هذا يؤكد محمد عوض عيوش أن «العناصر والمكونات الثقافية لدى أي مجتمع غير ثابتة على حال واحد، وإنما يجري تجديدها وتطويرها باستمرار، من خلال عمليات إنشاء ثقافي متصلة الحلقات عبر العصور والأزمان، ومتصلة أيضاً ببنيات وهياكل المجتمع الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وعمليات الإنشاء الثقافي يقوم بها مفكرون وأدباء وفنانون وحكماء وعلماء وفلاسفة... ونحوهم من المبدعين والمبتكرين والمجددين، في إطار البيئة والواقع اللذين يعيش فيهما المجتمع وما يواجهه من تحديات في كل عصر جديد^(١)».

أثر الإسلام في مناطق إثيوبيا والسودان وإريتريا الحالية

هجرات عرب الجزيرة العربية، التي تمت إلى منطقة شرق إفريقيا قبل ظهور

(١) محمد عوض عيوش، قراءة في سجل الثقافة السودانية وخطابها النهضوي، (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، الطبعة الأولى، إبريل ٢٠١٠م). صفحات ١٣ - ١٤.

الإسلام، كانت بغرض التجارة، إلا أن بعد ظهور الإسلام، أخذت تلك الهجرات أيضاً طابع التبشير بالديانة الإسلامية، خاصة على سواحل البحر الأحمر، ثم توغلت في عمق شرق إفريقيا، والتي كانت أيضاً عامرة بالنشاط التجاري بالأخص في بلاد الحبشة، وكما هو معروف فإن أول هجرة إسلامية كانت إلى الحبشة، في السنة الخامسة من بعثة النبي ﷺ. وتروي الروايات أن عدد الذين هاجروا، هم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، من بينهم أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وسيدنا عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. ومن القول المأثور لأم سلمة، بعد رحلة الهجرة للحبشة «فخرجنا إليها إرسالاً حتى اجتمعنا فيها فنزلنا بخير دار إلى خير جار أمين على ديننا، ولم نخش من هذا الملك ظملاً». فالشاهد في الأمر، وعلى حسب استنتاجات مؤرخي التاريخ الإسلامي، قامت دويلات إسلامية في بلاد الحبشة، قبل ستة قرون من قيام دولة سنار الإسلامية، ولعل من أقدم الممالك الإسلامية في داخل بلاد الحبشة هي مملكة بنو مخزوم التي تأسست عام ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م، وكانت عاصمتها «والالاه».. في منطقة «شوا» شمال مدينة أديس أبابا الحالية، وقد عرفت باسم مملكة بنو مخزوم ومملكة شوا. ويشير د. أحمد إلياس حسين، أن ما ورد عن مراكز وموانئ الساحل ومملكة شوا، يوضح أن الإسلام قد توغل كثيراً في داخل بلاد الحبشة. وأن الحضارة الإسلامية كانت مزدهرة في الداخل، كما انعكس في آثار مملكة شوا الإسلامية، التي توضح التطور الاقتصادي للمملكة. ومن البديهي القول بأن المملكة قد اهتمت بالنشاط التجاري، وبخاصة تجارة الذهب والسن وغيرها من سلع مناطق أعلى النيل الأزرق. وبنفس القدر الذي اشتهر فيه طريق البحر الأحمر عبر أكسوم إلى منطقة فازوغلي. إذا المنطق يشير بأن الاستخدام النشط لطريق فازوغلي التجاري، عبر مملكة شوا إلى القرن الإفريقي، لا بد أن يكون ذلك أيضاً من أهم عوامل إزدهار اقتصاد مملكة شوا، وكذا الممالك الإسلامية الأخرى التي ظهرت في المنطقة.

أما في السودان، فإن أول مملكة إسلامية، هي التي قامت في بلاد البجة، إذ عرفت بمملكة تغلين الإسلامية، وكان ذلك بين القرنين العاشر والسابع عشر الميلاديين، ثم مملكة الخاسة الإسلامية التي قامت في نفس المنطقة قبل القرن الرابع عشر الميلادي. فمن النتائج البديهية، أن الروابط الطبيعية والبشرية بين السودان والحبشة، قد أدت إلى تفاعلات الحراك التجاري والاجتماعي منذ بداية حضارتهما القديمة، وتأثر كلٌّ من الجانبين وتفاعل مع الطرف الآخر، وبرزت خلال ذلك الكثير من السمات والقواسم

المشتركة بين الجانبين. ويبدو جلياً أن الإسلام قد انتشر في بلاد الحبشة والسودان بنفس الأسلوب التبشيري، وليس عن طريق الغزوات والفتوحات الإسلامية. ففي موقع آخر يشير د. أحمد إلياس حسين، «أن الزعم الذي يفيد بالفتوحات الإسلامية لبلاد النوبة، هي مزاعم غير دقيقة وبالتالي لا يمكن الإعتماد عليها كمعلومة تاريخية حقيقية. فالمعلومات المتفق عليها عن الحروب المبكرة بين المسلمين والنوبة، تتحدث عن حملتين رئيسيتين فقط، في عامي ٢١هـ - ٣١هـ والتي سُميَ النوبة في أحدهما (برماة الحدق)»^(١). وتحدثت تلك المصادر أيضاً، عن صراع مستمر بين المسلمين منذ دخولهم مصر وبين النوبة، في تلك الفترة ٢١هـ - ٣١هـ انتهت بالاتفاق الذي تم بين عبد الله بن أبي السرح والنوبة، وهو عبارة عن هدنة أمان، وركزت بنود ذلك الاتفاق على نقطتين فقط، الأولى: إنهاء الحرب، والثانية: تبادل الرقيق بالمؤن الغذائية. وفيه ورد، «ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هي هدنة بيننا وبينهم. : إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلوننا» ... «إنما صلحوا على أن لا نغزوهم ولا نمنع منهم عدواً»^(٢). بهذا جاء في بنود النقطة الثانية - كما ذكرت كل المصادر - أن المسلمون مؤن غذائية للنوبة مقابل الرقيق. وأتت الاختلافات فقط في عدد الرقيق وتفاصيل المؤن الغذائية. فقد جاء عن عدد الرقيق مرة ٣٦٠ وأخرى ٣٦٥. لكن الشيء المؤكد في هذه المصادر التاريخية عدم وقوع معركة فاصلة بين جيوش المسلمين والنوبة عام ٣١هـ، وبالتالي لم تتوغل جيوش - العرب - المسلمين من مصر جنوباً في أرض النوبة، بل كانت الحرب سجالاً بين الطرفين، ولم يرد أن المسلمين هاجموا أو احتلوا أي مدينة نوبية، حسب ما ذكره د. أحمد إلياس حسين، إذ هذا هو فقط اتفاق عبد الله بن أبي سرح مع النوبة وكل ما خرج أو زاد على ذلك فهي خارجه. وهذا تأكيد على أن العرب لم يدخلوا السودان في وقت واحد. كما أنهم لم يدخلوه بأعداد كبيرة، بل كانت

(١) دكتور أحمد إلياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأسيس الهوية، الجزء الثالث، (الخرطوم:

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر، الطبعة الثانية ٢٠١٢م). ص ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه. ١٦١. يشير أيضاً د. أحمد إلياس حسين، في الفصلين الرابع والخامس، إلى حدوث

عدد كبير من المعارك العسكرية، على مدى حوالي ستة قرون، أي بين عامي ٢١هـ - ٦٥٦هـ، بين

المسلمين ومملكتي نوباتيا والمقرة. لم يتمكن المسلمون فيها من غزو السودان، لذا انتهت تلك

الحروب باتفاقيات صلح هشة، مما أدت إلى اندلاع الحروب تلو الأخرى.

دخولهم في شكل مجموعات صغيرة بغرض التجارة أو التبشير الإسلامي. ولنا أن تصور التأثير الديموغرافي لمثل هذه المجموعات التي دخلت بأعداد صغيرة، بالطبع لا يمكن أن تكون هي الأعداد الغالبة في المنطقة، بالشكل التي تؤثر في تشكيل التكوين السكاني المحلي، ولا هي بالكثرة التي تؤدي إلى تغيير ملحوظ بالشكل المدعى عليه في ديموغرافية المنطقة، والتي بدورها قد تؤدي إلى طمس الهويات العرقية للسكان المحليين بالكامل، الشيخ الذي يجعل أفراد القبائل المستعربة، أن يتشبثوا بالعرق العربي وينكروا أصولهم النبوية.

هوية السودان القومية:

قصدت بالسرد التاريخي السابق، دحض دعاوي الهوية القومية الفاشلة، فالواقع المعاش أن الناس لا تستطيع أن تتعايش فوق رقعة جغرافية واحدة، فيها يتبادلون المنافع وينظمون شئون حياتهم الكثيرة، دون أن تكون تلك المعاملات قائمة على رؤية العيش المشترك، يشارك في تأسيسها كل المجتمعات داخل تلك الرقعة بهدف البقاء والمعاش والأمن والرفاهية. بهذا المفهوم نجد أن هناك إشكالية مفتعلة للهوية القومية في السودان، هي إحام ما يعرف بالمد العرقي العربي والحضاري الإسلامي، الذي من أهدافه بالطبع، إعادة إنتاج الإنسان السوداني داخل الهوية الإسلامية العربية، مستغلاً في ذلك التعريف الكلاسيكي للهوية، الذي يعني ذاتية الإحساس بالوحدانية والاستمرارية الشخصية، الإحساس بالانتماء إلى منظومة راسخة من القيم التي تكون الاتجاه العقلي والأخلاقي للمرء، وتعطى الأفراد خصائصهم المتفردة، أي أن الهوية إدعاء للعضوية، يستند إلى كل أنواع النمطيات مثل العرق، الجنس، النوع، الطبقة، الطائفة، الدين، الثقافة... إلخ. لكن في عصرنا هذا ترتبط هوية الشخص بكيانه السياسي، أي بحدود الدولة السياسية التي يعيش داخلها بغض النظر عن عرقه أو لغته أو دينه.

هنا نلاحظ أن أزمة الهوية في السودان، تحدث على مستويين إثنين، هما المستوى الشخصي والمستوى الاجتماعي. فعلى المستوى الشخصي، تنشأ الأزمة عندما تحين لحظة إحداث التوافق بين التماهيات الطفولية، وبين تعريف جديد وعاجل للذات، تقوم علي جهد مستمر كل الحياة. من أمثلة ذلك التماهيات والمفارقات المثيرة للجدل، إدعاء قبائل الجعليين والداقلة والشايقية - وهم في الأصل نوبيون كوشيون - من

الشمال النيلي بأنهم عرب، يقابل هذا الإدعاء نكران عرب الجزيرة العربية لعروبة السودانيين، وهم «العرب الأصلاء الأتحاح» ويحتلون مركز الهوية العروبية، ويتمتعون بصلاحيات إضفاء الشرعية أو سحبها من إدعاءات المستعربين. ونستدل هنا أولاً بقول أحد الكتاب السعوديين، «أن الفرد السوداني غير متصالح مع كون أن لونه «لوناً أسوداً» لا غبار عليه .. كما أنه غير متقبل لحقيقة أن هناك «مكون أفريقي» يغلب على «مكونه العربي» بكل وضوح .. هذا الاضطراب النفسي - الإنكار الشديد للحقيقة التي يراه الكل - جعل الفرد السوداني يسلك سلوكاً تعويضياً حالما تحط به الطائفة في إحدى المطارات العربية .. جعله شديد الحساسية لا يتقبل نقد الآخر العربي .. جعله يسعى بشتى الطرق لنيل الأستحسان من الآخر العربي .. وليس صعباً تحديد مظاهر السلوك التعويضي للسودانيين عند التعامل مع العرب .. وسأذكر بعضاً منها -أملاً منكم- ذكر اي سلوك تعويضي للشخصية السودانية خارج السودان شاهدتموه أو سمعتم به:» (مرفق المقال كاملاً مع المرفقات). إضافة لهذا يلخص د. الباقر العفيف أزمة الهوية في السودان في كتابه وجوه خلف الحرب: لهوية والنزاعات الأهلية في السودان. فيما ذكره شارلس تيلور في، «يمكن أن يلحق بالشخص أو لمجموعة من الناس، أذى حقيقياً، وتشويهاً حقيقياً، إذا عكس لهم المجتمع الذي حولهم، صورة عن أنفسهم، تنطوي على الحصر والحط من الكرامة والاحتقار.» ويضيف د. الباقر العفيف، أن المركز «كان أبعد ما يكون من الإعراف بالشماليين عندما سماهم (عبيداً)، وأبقاهم بالتالي، إذا استخدمنا مصطلح تيلور، (على مستوى أدنى من الوجود)»^(١). فنجد أن استنكار العرب لإنتماء السودانيين لهم، يسبب حرجاً بغضاً للسودانيين في خارج البلاد، بعد أن انعكست هجراتهم للخارج خاصة إلى الدول الخليجية، وبدأوا يحسون بأن كرامتهم قد انحطت، ففي ظل هذه الأوضاع الحرجة والمؤذية جداً، الرجوع للحق فضيلة، لذا على المستعربين الرجوع إلى أصلهم التربوي «عظمة ترهاقا».

ودعماً لما ذهبنا إليه، نسوق هنا عدة أمثلة، لتجارب السودانيين في الخارج خاصة في دول الخليج، وهي حكاوي متداولة على نطاق واسع بين السودانيين؛ منها:

(١) دكتور الباقر العفيف، وجوه خلف الحرب: الهوية والنزاعات الأهلية في السودان، الطبعة الأولى (الخرطوم: مركز الخاتم عدلان للاستشارة والتنمية البشرية، ٢٠٠٧م). ص ٢٤.

(أ) يحكى أن أحد المواطنين السودانيين إسمه عبيد - وهو إسم شائع في طول البلاد وعرضه - سافر إلى السعودية، فسأله ضابط الجوازات السعودي لدى وصوله إلى مطار جدة عن إسمه، فأجابه بإسمه، رد عليه الضابط «أنا أدري أنك عبيد، بس أيش إسمك؟» .

(ب) أيضاً حدث في السعودية أن أحد السعوديين، سأل أحد السودانيين مستغرباً، كيف يسمون أبناءهم ب«عبد الرسول» لأن في نظر ذلك السعودي حيرة، كيف يكون الإنسان عبداً لغير الله، حتى لو كان المعبود رسول الله.

(ج) أما في مسألة السؤال عن الشلوخ، ففيها قصص وردت في كل من العراق والسعودية - حسب الروايات التي تلقيتها من بعض الذين رجعوا من تلك الدولتين - مفادها أن أصحاب العمل من العراقيين والسعوديين الذين جمعتهم ظروف العمل، مع السودانيين المغتربين الذين على حدودهم شلوخ مثل ال«H, T, 111»، نما في إعتقادهم، ألا تكون مثل هذه الشلوخ في الإنسان، إلا إذا كان عبداً للتمييز بينهم، فقد علمت أن عدداً من السودانيين، تركوا وظائفهم وتحولوا إلى أماكن أخرى تفادياً للخرج المجرح.

(د) في ورقة عن مشكلة الهوية في شمال السودان بتاريخ ٨ / ١٢ / ٢٠٠٩م للكاتب، مبارك عبد الرحمن أحمد^(١)، أشار بأن الأزمة تتعلق «بالغموض» حول الهوية، إذ يذكر أن الشماليين وقفوا وجهاً لوجه أمام هذه الظاهرة، خاصة في أوروبا وأمريكا، حيث يصنف الناس حسب انتماءاتهم الإثنية والاجتماعية. ففي عام ١٩٩٠، عقدت مجموعة من الشماليين، اجتماعاً بمدينة بيرمنجهام البريطانية، لمناقشة كيفية تعبئة إستمارة المجلس البلدي، وخاصة السؤال حول الإثنية الإثني. فقد شعروا أن أياً من التصنيفات الموجودة ومن بينها «أبيض، أفرو/ كاريبي، آسيوي، أفريقي/ أسود، وآخرون» لا تلائمهم. الذي كان واضحاً بالنسبة لهم إنهم ينتمون إلى «آخرون» ولكن الذي لم يكن واضحاً هو هل يحددون أصلهم «كسودانيين، أو كسودانيين عرباً، أو فقط كعرب؟». وعندما أثار أحدهم السؤال: لماذا لا نؤشر على فئة «أفريقي/ أسود»؟ كانت الإجابة

(١) مبارك عبد الرحمن أحمد، صحيفة سودانيل الإلكترونية ٨ / ١٢ / ٢٠٠٩م.

المباشرة هي: «ولكننا لسنا سوداً» وعندما ثار سؤال آخر لماذا لا نضيف «سوداني وكفى؟» كان الجواب هو: «سوداني تشمل الشماليين والجنوبيين، ولذلك لا تعطي تصنيفاً دقيقاً لوصفنا»، ولو حظت ظاهرة الغموض حول الهوية كذلك، في الشعور بالإحباط والخيبة الذي يشعر به الشماليين، عندما يكتشفون لأول مرة، أنهم يعتبرون سوداً في أوروبا وأمريكا. وتلاحظ كذلك في مسلكهم تجاه المجموعات السوداء هناك. إطلاق كلمة أسود على الفرد الشمالي، المتوسط، كانت تجربة تنطوي على الصدمة. ولكن الجنوبيين يرونها مناسبة للمزاح، فيقولون لأصدقائهم الشماليين: «الحمد لله، هنا أصبحنا كلنا سوداً» أو «الحمد لله، هنا أصبحنا كلنا عبيداً».

(هـ) أما الحرج الأكبر فكان على مستوى الدولة، عندما اعترضت دول لبنان وسوريا والعراق، على انضمام السودان والصومال لجامعة الدول العربية، مما استدعى تدخل جمال عبد الناصر، الرئيس المصري آنذاك، الذي أقنع قادة تلك الدول بقبول عضوية السودان، وكان الإعتراض على أساس أن السودان كدولة لا تستوفي الشرط الأساسي، وهو أن تكون الدولة عربية في المقام الأول. كان جمال عبد الناصر آنذاك، قد أطلق دعوة مفادها أن البحر الأحمر بحيرة عربية، وذلك لم يكن ليتحقق ما لم يتم ضم السودان والصومال وجيبوتي وإريتريا إلى حظيرة الدول العربية. لذلك فالهدف الأول من هذه الدعوة، كان يتمثل في استغلال الموارد المائية في النيل والبحر الأحمر. فضلاً عن ذلك، كان جمال عبد الناصر بنزعتة للقومية العربية الجامحة، يسعى إلى جمع أكبر عدد ممكن من الدول والشعوب، لمناصرة قضية العرب المحورية في فلسطين^(١). لذلك نرى الوجود المبكر لمدارس البعثات المصرية في السودان، مثل جامعة القاهرة الفرع، البعثات الدراسية لمصر... إلخ. كل ذلك لم يكن من أجل سواد عيون السودانيين، إنما مواصلة لترسيخ مشروع العربية الاصرى، والذي صادف أهواء النخب الباحثة عن هوية تستر بها عورة توهان الإنتماء.

(و) لكن أول حرج وأفظعه هو ذلك الذي تلقاه السودانيون، والذي تجسد في هجاء المتنبي، لكافور الأخشيدي، حاكم مصر السوداني النوبي الأصل، إذ تجسدت في تلك

(١) دكتور أحمد إلياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، الجزء الأول، (الخرطوم:

مكتبة الوطنية أثناء النشر، الطبعة الثانية ٢٠١٢م). ص ٤٧.

القصيدة كل معاني الاستعلاء العرقي والدونية والإزدراء، بينما المتنبئ نفسه جاء لمصر مستجدياً المال وحكم أحد أقاليم مصر، وعندما لم يتحصل عليهما قام بهذا الهجاء اللاذع في هذه الأبيات.

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنِ ثَعَالِيهَا فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفْنَى الْعَنَايِدُ
الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرِّ صَالِحٍ بِأَخٍ لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ
لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ الْعَبِيدَ لِأَنْجَاسٍ مَنَاقِيدُ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَبْقَى إِلَى زَمَنِ يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مُحَمَّدُ

مما يحтар له المرء، أن بلداً بهذا الوضع، تسمح نخبه السياسية بتدريس هكذا مادة للنشء، الذي ينتمى معظمه إلى الذين عانوا مرارات ذلك التاريخ.

هذا ما كان على الصعيد الشخصي والفردى، أما على المستوى الاجتماعى، فتنشأ أزمة الهوية عندما يفشل الناس - السودانيون المستعربون - وهم يصنعون هوياتهم في الوطن الواحد، في العثور على نموذج يناسبهم تماماً. أو عندما لا يحبون - الشعوب الإفريقية الأصل - الهوية التي أجبروا على تبنيها. ففي كل الأحوال، نخلص بأن العروبة هي مكتسب ثقافى، وليست موروثاً عرقياً كما يدعيها البعض، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تكون هي الهوية الأحادية، لسكان بلد فيه تباين واضح في التعددية العرقية والثقافية.

الوعي بالذات:

كثير من الذين يهتمون بالشأن السودانى، يعتقدون أن من ضمن الأسباب الرئيسية لسقوط الدولة المهديّة، يعود إلى الصراع الداخلى، الذي قاده من يعتقدون جزافاً أنهم ينتمون إلى أشراف الجزيرة العربية، وأنهم بذلك أحق بالحكم من الخليفة عبد الله التعايشى، والذي يمكن أن يُعدّ بأنه أكثر نقاءً فيما يخص الدماء العربية، مقارنةً بأؤلئك الذين إدعوا الشرفية العربية. هذا التصور يحمل بين طياته رفض لأغلبية الأنصار الذين ينتمون لقبائل غرب السودان، والتي اعتمد عليها الإمام المهدي في كل انتصاراته العسكرية على المستعمر التركى/ المصرى، ويعود أساس الرفض لأنصار المهدي إلى عدة إعتبارات منها، أنهم ينتمون إلى أطراف السودان، وفي هذا أنهم يختلفون عن

مجموعات وسط وشمال السودان، بما في ذلك الإلتواء إلى الثقافة العربية، وإن كانوا يشتركون معهم في المعتقد الديني وهو الإسلام. إذاً يبيّن لنا هذا الاعتقاد، على أن الصراع السياسي في السودان الذي أُسِرَ على الإقصاء الإثني والثقافي، قد بدأ خروجه للعلن منذ ظهور المهديّة. على كل حال إيه من الأهمية بمكان، أن ندرك تماماً أن هذا التباين في الهوية والقبلية والثقافة، وعدم قدرتنا على تأسيس قومية سودانية موحدة، هما اللذان يشكلان أساس الصراع في البلاد، وهما أيضاً اللذان يشكلان أزمة داخل كل منطقة من مناطق السودان المختلفة، مما يعني أنه ليس هناك منطقة من مناطق السودان، تنصهر في قومية واحدة - وإن بدت هذه لمناطق متوحدة في صراعها ضد الشمال النيلي من أجل المشاركة في السلطة - وذلك أن الإلتواء في السودان لا يزال للقبيلة، فكل مناطق السودان في شماله وجنوبه وشرقه وغربه متعددة القبائل، من ذلك ليس فيه منطقة موحدة الهوية والقبيلة. ولعل هذه الحقيقة تهم كل الذين يهتمون بالشأن السوداني، لأن الصراع السياسي والذي أخذ الطابع القبلي، كالذي حصل في دولة جنوب السودان الجديدة في نهايات العام الماضي، قد يتكرر في بقية مناطق السودان - بالأخص في دارفور - إذا حصل مزيد من الإنشقاق في السودان المتبقي - وهو أمر يكون من العبث تجاهله، خاصة في ظل نظام المؤتمر الوطني الحالي.

علمتنا دروس التاريخ أن الإنسان يهاجر من بيئته الأصلية كلما ضاقت به الحياة، إلى أماكن آمنة، وهنا نعني تحديداً عندما يكون الإنسان في مواجهة خطر سلامة الحياة، أو ضيق سبل المعيشة. على العموم، عندما كان السودان بلد الحضارة ورخاء المعاش والسوق التجاري الزاهر، أي بلاد جاذبة للأجانب، شجعت هذه الميزات الموجبة العرب من الجزيرة العربية، أن ينووا علاقات تجارية قوية مع ممالك السودان المختلفة منذ ما قبل الإسلام، خاصة مع ممالك شرق السودان كالبجا، لدرجة أن العرب تعلموا اللغة البجاوية من أجل مصالحهم التجارية. نحن في السودان لم نكتث كثيراً في التنقيب عن معرفة أصول أسلافنا، وفي تقديرنا تعد ذلك مصيبة كبرى ما لم نتداركها عاجلاً، وعدم التنقيب هذا قد قادنا جميعاً إلى فشل واضح في معرفة ماضيها الاجتماعي والثقافي، لأسباب قد ترجع في جانب منها، إلى أن هذا التاريخ نفسه قد تم تزويره عندما كتب بأيدي المخابرات الأجنبية، والتي أصبح المصدر الأساسي للدراسات فيما بعد، وفي جانب آخر قد يرجع إلى النظرة الأحادية للباحثين المتأثرة بالأيديولوجيا والسياسة، بالأ

تشمل دراساتهم كل أطراف السودان. على وجه الخصوص غرب السودان الذي عانى إنسانه في فترة الاستعمار تهميشاً مطلقاً بسبب دوره في الثورة المهدية، وأيضاً بسبب مناصرة سلطان دارفور لتركيا، في الحرب العالمية الأولى، بل تمّ إهمال غرب السودان بصورة مريبة حتى من قِبَل أهل الشمال، بما فيهم المتممين إلى الثورة المهدية، في خدمات التعليم والصحة والتنمية. وأخيراً قامت الحكومات الوطنية، وبالأخص حكومة الجبهة الإسلامية، بتتويج ذاك التهميش وتطويره بصناعة الحروب القبلية.

من هنا يبدو جلياً أن تاريخ السودان المشوه، قد قاد جميع السودانيين، وبخاصة أهل الشمال النيلي، أن يكونوا أسيرين للقهر النفسي من جراء الاستعمار الأول ١٨٢١م، الذي كان هدفه الأساسي نهب خيرات البلد من مال (ذهب) ورجال (عبيد)، بيد أن هذا الاستعمار نفسه قد سبقه اتفاقية البقط، والذي كان من أحد بنوده توفير العبيد للمسلمين مقابل المؤن الغذائية. ففي المقام الأول، قاد هذا القهر النفسي الإنسان السوداني، إلى بناء شخصيته من مخلفات الماضي المرتبط بالضعف والهوان، الذي إنزوع داخله نتيجة للظروف التاريخية المذكورة من جهة، وإلى الظلم المنتظم الذي يمارسه الحاكم «الوطني» من بعد. ففي ظل هذا الوضع، يحتاج السودانيون قبل أي شيء آخر، إلى إزالة العاهة النفسية المرتبطة عضوياً بطرفي المعاهدة والاستعمار، ومن ثمّ إلى بناء الشخصية السودانية الخالصة في مناخ معافي، يعزز تغلغل مكونات المجتمع السوداني المتعددة، دون أن يكون لذلك انفلات نحو أي منها، يقلل أو يهشم الآخر. هنا يلخص لنا د. منصور خالد في (حوار مع الصفوة) الأمر كله في «أن محنة السودان هي فقدان الوعي بالذات، هي الجهل المفضوح بالتراث الحضاري للأمم، هي عدم الإدراك للديناميكية الاجتماعية في العالم الذي نعيش فيه والذي يغدّ السير نحو القرن الحادي والعشرين في ثورة تقنية وعلمية لم يشهد لها التاريخ مثلاً، هي في الرفض المستريب أحياناً كثيرة أخرى للتلاحم المصيري بين قوى العالم النامي الذي يشق طريقه صعوداً نحو مستقبله الوارف. وانعدام كل هذه المميزات قد جعل من كل عناصر القوة في بلاد السودان عناصر ضعف وموات. فالدولة العصرية ليست هي اقتناء الآلات الحديثة وإنما هي تطور في العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية^(١)». إذاً تقتضي الضرورة أن يتحرر الإنسان السوداني من القهر النفسي، وأن بناء المستقبل

(١) دكتور منصور خالد، حوار مع الصفوة، الطبعة الثانية (الخرطوم: مدارك ٢٠١٠م). ص ١٠٧.

يتطلب عدم الرؤية للماضي المشوه وكأنه يريد عزل الماضي تماماً، وهذا خطأ جسيم لأن البناء لا يقوم إلا على أساس. فالماضي هو ما مضى لا يمكن إرجاعه، لكن يجب على إنسان السودان ألا يكرر الماضي المشوه.

فالعلاقات الاجتماعية بين الشعوب، هي علاقات ديناميكية متداخلة تؤدي في كثير من الأحيان إلى التزاوج بين الأجناس المختلفة، ففي العصور الحديثة، تطورت هذه العلاقات بفضل العولمة مما أدت إلى تسهيل التواصل البشري، ومن ثم إلى التقارب في استيعاب قيم وقبول الثقافات المختلفة. وبما أن عصرنا هذا، هو عصر الإهتمام بالعلم والمعرفة، الذي يعمل من أجل رسم السياسات الاجتماعية، في هذا الجانب يقوم الاتحاد الأوروبي حالياً، بتمويل المؤسسات الأكاديمية بعمل دراسات علمية في شتى مناحي الحياة، من ضمنها دراسة قائمة حالياً لأطفال من أبوين ذا جنسيتين مختلفتين، أي منحدرين من ثقافتين مختلفتين. هذه الدراسة البحثية تتركز في المرحلة الأولية منها، على أولئك الذين يكون أحد الأبوين من قارة غير أوروبية، ويعيش إحداهما أو كلاهما مع آبائهم في أوروبا، ومن بين أهداف أخرى، يلاحظ أن الغرض الرئيسي هو معرفة طموحات وقدرات هذا الإنسان الأوروبي الجديد، لتقوم الدولة الأوروبية بواجبها على الوجه الصحيح، تجاه مواطنه الجديد الذي يحمل جزءاً من الإنتماء العرقي الغير أوروبي. مثل هذا التوجه النبيل لا يقوم فقط على فرضية أنه واجب يستند إلى القانون، بل أيضاً ينبع من درجة سمو الأخلاق الفاضلة، للشعوب المتحضرة نحو الإنسانية.

أمر آخر في مسألة الوعي بالذات، هو بناء ثقافة موحدة التي من شأنها أن تقود إلى التنمية الشاملة. ففي هذا، فإن الثقافة في معناها النهضوي، هي ترجمة عملية لمنظومة المفاهيم والقيم الأخلاقية والإنسانية والرؤى والأفكار، وتحويلها إلى معايير وقواعد ونظم لتغيير الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، والإرتقاء به إلى ما هو أفضل وأنفع وأجدى للبشرية كافة. وبذلك تعمل على حفظ كيان المجتمع واستمراريته، وتغذبه بعناصر الحياة التي تؤمن وتقوي مسيرته الخالدة، والرامية أبداً إلى فتح مغاليق الحياة والقطف مما تخبئه من طيات لا ينالها الإنسان إلا بالجهد والمثابرة.

إذاً عندما تفسح المجال للثقافات المختلفة أن ترقى رُقياً طبيعياً، بعيداً عن التأثيرات والتوجهات السياسية، سيؤدي ذلك إلى تلاحم تلك الثقافات السودانية في المسار

الطبيعي الخلاق، وبالتالي إلى تعمير ثقافة غنية ومتميزة عن بقية شعوب العالم، وهذا بدوره سيؤدي إلى مساهمة بليغة جداً في التنمية البشرية ومن ثم السياسية والاقتصادية. وهذا يقودنا إلى أن التنمية البشرية، والتي من شأنها أن ترفع قدرات ومهارات البشر في كل المجالات الحياتية، هي أساس حلقات التنمية الشاملة في الدولة. فالمخرجات الناتجة عن التنمية البشرية، أي كل ما يتجه البشر أو يطوره في ميادين الطبيعة، تلك المخرجات تكون على إتجاهين هما، إما تنمية شاملة ومتكاملة ومنسجمة، أو تنمية في إحدى الميادين الرئيسية بمعزل عن الميادين والمجالات الأخرى، مثال ذلك، الميدان الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي أو الميادين الفرعية كالنمية الصناعية أو التنمية الزراعية أو التنمية السياحية، ويمكن القول بأنها عملية تغيير اقتصادي واجتماعي على نحو إيجابي. نلاحظ أن بعض نظريات التنمية، كنظرية التحديث التي تنص على أنه يمكن تحقيق التنمية، من خلال اتباع عمليات التنمية التي تم استخدامها من قبل الدول المتقدمة حالياً، وتفترض أيضاً أن مراحل التنمية في كل بلد، تكون في عملية خطية وعلى كل بلد من البلدان أن تمر عبرها. هذه النظريات تنظر إلى التعليم بوصفه عنصراً أساسياً لخلق المجتمعات الحديثة، لهذا تنظر إلى الدولة باعتبارها لاعباً رئيسياً في تحديث المجتمعات المتخلفة.

مما تقدم نخلص بأن التنمية الشاملة والمستدامة، تحتاج إلى تفاعل وتناغم حلقات الحراك الإنساني، أي الحلقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ففي حالة الشعوب السودانية التي عاشت تجارب حكم مختلفة كل عن الآخر عبر تاريخها الطويل، نرى أن الوقت قد حان أن تمنح هذه الشعوب الفرصة لتنمية ثقافتها، بعيداً عن التدخلات من الشعوب الأخرى، وهذا بالطبع سيؤدي إلى تلاحم هذه الثقافات والجماعات مع بعضها البعض في بيئة طبيعية خلابة. هذا التلاحم الاجتماعي الطبيعي، سوف يقود إلى خلق مناخ وفلسفة سياسية ملائمة للأمة الجديدة في إدارة شؤونها، وهذا بالطبع يتطلب الحكم الرشيد، الذي تتصرف فيه المؤسسات العامة والشؤون العامة، في إدارة الموارد العامة من أجل ضمان سعادة الإنسان. هنا يبرز لنا مفهوم الحكم الرشيد على أنه نموذج جيد للمقارنة بين الاقتصاديات غير الفعالة، ونظراً لأن معظم الحكومات الناجحة في العالم المعاصر، تكون في الدول الديمقراطية الليبرالية، التي تتركز في أوروبا والأمريكيتين، فالمؤسسات في تلك الدول لديها المعايير التي يمكن من خلالها المقارنة بين المؤسسات في الدول الأخرى. من هذا المنطلق، وتعزيزاً للحكم الرشيد، يمكن

إصلاح مؤسسات الدولة والقطاع الخاص والمجتمع المدني داخل الثقافات المختلفة في الدولة الواحدة. فالتطور في مجتمع ما، هو التلاحم الديناميكي بين حلقات الحراك البشري - الاجتماعي والسياسي والاقتصادي - فالوضع في السودان يتطلب أولاً أن يكون هناك تلاحم في المجتمع السوداني الكبير، وذلك أن يكون هناك إعراف واحترام متبادل من جميع شعوب السودان لبعضها البعض، ومن ثمّ السعي إلى مصالحة مجتمعية بينها، والتي من شأنها أن تؤدي إلى خلق دولة الكّل، وهو ما نسميه دولة العقد الاجتماعي، الخيار الذي لا مفر منه. وستكون من المهمات الأولية والأساسية لدولة الكّل، التشريعات والقوانين التي تقنن الحراك الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

إن غربة الموروثات والمكونات، وفترة المفاهيم، مهمة جزئية من المهمة الكبرى وهي التغيير. والتغيير ما هو إلا تحول وانتقال من حال إلى حال، من القديم والسائد والمأثوف، إلى الجديد الملبي لإرادة أفراد المجتمع، والمنعقد من القديم البالي. وهو مهمة كبيرة، تتداخل فيها عوامل كثيرة، ويتم بجهد جماعي من أجل إصلاح الواقع. والتغلب على مشكلاته، والانعقاد من قبوده، بعد تهيئة المسرح للتغيير، أي بعد التنوير المستفيض. والتغيير يبدأ في عقل الإنسان، من أفكار ورؤى وأطروحات ثم تنتقل إلى الواقع، بهدف الترجمة العملية والتطبيق. وهنا يتجلى دور النخبة، فالنخبة ومنهم القادة، تقع على عاتقها مسئولية التغيير.

إن إعادة بناء الهوية، بوعي المكان والزمان، في إطار التراكم التاريخي والحقائق القائمة، كالذي تم في دولة الإمارات العربية المتحدة العام ١٩٧١م، تعتبر مثل هذا البناء أحد الشروط التي لا يمكن الاستغناء عنها، من أجل الظهور على مسرح التاريخ، والمساهمة في التراكم البشري. فالذهنية الاستراتيجية، التي لا تستند إلى نية لإثبات وجودها، لا يمكنها التخلص من السلبية التي تعيشها. ولذلك فإن المجتمعات التي تمتلك الذهنية الاستراتيجية الثاقبة، والتي تنتج مفاهيم وأدوات ومجالات جديدة، حسب الظروف المتغيرة والمحيطه بهذه الذهنية، تستطيع أن تفرض ثقلها في مقاييس القوى الدولية. وبالمقابل، فإن المجتمعات التي تسلخ عن الوعي بهويتها، من خلال انكسار راديكالي في ذهنيها الاستراتيجية، ستجازف في قوة وجودها التاريخي. في حين أن المجتمعات التي تتعامل بذهنية جامدة، برفضها للمجتمعات الأخرى، فإنها ستسلسخ عن الوعي البشري المشترك ويتم رفضها. فالذهنية الجامدة، هي التوجه الذي يسير فيه

الدولة السودانية، منذ تأسيسها، رغم انفصال جزء كبير منها يعادل ثلث المساحة وثلث الموارد الطبيعية بما فيها الموارد البشرية، فكانت الفشل حليفها. وعندما نقارن التأسيس العقلاني لدولة الإمارات، مع التأسيس الغير عقلاني للدولة السودانية، نجد أن دولة الإمارات العربية المتحدة، قد تأسست على هوية جامعة واعية، عملت على ترسيخ المواطنة الجديدة وتعليها على الهويات الفرعية، مع المحافظة عليها. إذ ساوى دستور الدولة بين كافة مواطني الإمارات المتحدة، باعتبارهم مواطني دولة واحدة، وعليه نشأت عملياً حقوق المواطنة التي تحفظ في ذات الوقت الهويات التقليدية في الدولة.

الخلاصة:

مسألة تطوير السودان، تحتاج إلى جهد كبير جداً، نسبة للتعصب الإثني والعربي والقبلي والديني، الذي لا زال متفشياً وسط هذه المجموعات، مثل هذا الوضع قد يجعلنا نصف المجتمعات السودانية بالمتخلفة والبدائية. لذلك فإن النخب النيلية الحاكمة، تثبت بالآخر الخارجي فتخلع رداءها وتريد أن ترتدي رداء ذاك الآخر الغريب، ورداء الآخر ليس مفصلاً لكسوته هو، فقط لأن منطق الطبيعة تقول هكذا. لا يمكن أن تصنع نفسك من عرق آخر، لذا فإن هذه المجتمعات تحارب بعضها بعضاً بشراسة. لذلك تحتاج هذه المجتمعات في المقام الأول أن تكون في أعتاب الحضارة، وذلك بنذ الحروبات بينها. وهذا لن يتم إلا بالتخلي عن التعصب القبلي الذي هدفه السيطرة على الآخر ومن ثم على السلطة. كما أن التعصب الديني ما هو إلا للتمكين من قيادة الإنسان كخطوة أولية كذلك للوصول إلى السلطة.

تأسيساً على الاعتراف والاحترام للثقافات المختلفة، يمكن أن نصل إلى مرحلة نضج مفاهيمي حقيقي، تقودنا إلى تأسيس فئات راسخة، ننظر بها إلى واقعنا الإثني والثقافي بنظرة شمولية، بعيداً عن الأهواء العرقية والمصالح الطائفية والعقائدية والإقليمية، إذاً الضرورة والواجب تقتضيان أن ندرس بتمعن تاريخنا الاجتماعي.

نختتم هذا الجزء من الكتاب بخلاصة أن التعصب العرقي المدعى، في غير بيئته الطبيعية، هو العامل الرئيسي الذي أدى إلى تدمير وخراب البلاد. ويبقى السؤال الموضوعي، ما العيب لو اقتدى السودانيون بمثل مواطني الولايات المتحدة الأمريكية؟ الذين أمثوا على نعمة الحرية لأنفسهم ولأجيالهم القادمة، ففي ذلك يحدثنا

فرانسيس فوكوياما أن «التجربة الأمريكية هي فريدة من نوعها، فالأمريكيون ولدوا متساوين. على الرغم من تنوع الخلفيات الاجتماعية والأعراق والمناطق التي أتت منها أسلافهم، فإنهم بمجيئهم إلى أمريكا، قد تخلوا عن هذه الهويات إلى حد كبير، وتم استيعابهم في المجتمع الجديد، دون تحديد للطبقات الاجتماعية بشكل حاد أو للانقسامات العرقية والوطنية السابقة. لذلك منعت البنية الاجتماعية والعرقية الأمريكية، بما فيه الكفاية لظهور الطبقات الاجتماعية الجامدة، وأنوميات الفرعية والأقليات اللغوية. وبالتالي نادراً ما واجهت الديمقراطية الأمريكية، بعض الصراعات الاجتماعية الأكثر تعقيداً، من غيرها من المجتمعات القديمة⁽¹⁾».

The American experience is unique insofar as Americans were, born equal, despite the diversity of backgrounds, lands, and races to which American traced their ancestry, on coming to America they abandoned those identities by and large and assimilated into a new society without sharply defined social classes or long-standing ethnic and national divisions. America's social and ethnic structure has been sufficiently fluid to prevent the emergence of rigid social classes, significant subnationalisms, or linguistic minorities. American democracy has therefore rarely faced some of the more intractable social conflicts of other, older societies.

لذا تقتضى الضرورة بأن تفصل العصبية العرقية عن الدولة. وهذا عندما تبعد كل المسائل الخلافية بحيث لا تتدخل في إدارة شؤون الدولة دستورياً، ويبقى القاسم المشترك الوحيد الذي يجمع السودانيين، هو البقعة الجغرافية أي السودان، حيثند تصبح الهوية القومية للسودانيين التي لا خلاف فيها هي «السودانوية». لأن واقع الحال يقول أن الإنسان يُعرف بقطره، فالوثائق الثبوتية للشخص تبين إسمه وتاريخ ميلاده وإسم بلده الذي ينتمى إليه ونوع جنسه، مثلما الأقطار تُنسب للقارات، إذاً المسألة في الأساس هي تحديد الرقعة الجغرافية لمعاش الشخص، وهي عنوان الإقامة والمعاش. فلا مجال للجدل البيزنطي لإثبات ما يسمى ببرامج إعادة إنتاج القوميات السودانية المختلفة ودمجها في قومية واحدة، هي لعربية.



(1) Fukuyama, Francis, (1992). The End of History and the Last Man. Penguin Books, UK. P118.